

مقدمة لقراءة أبي بكر الرازي بين الفلسفة والطب

العربي الطاهري (*)

تمهيد :

هو أبو بكر محمد ابن زكريا الرازي (ولد سنة ٨٦٥م) فيلسوف اشتهر في الطب والكيمياء وفي الجمع بينهما وكان يلقب بطبيب المسلمين دون منازع^(١).

على هذا النحو يبدأ القفطى في تقديمه للرازي. ويذكر له المؤرخون القدامى أكثر من مائة كتاب ورسالة ومقالة^(٢). أغلبها في صناعة الطب ونحوها من ضروب المعارف الطبيعية والإلهية. إلا أن انتشار الرازي فلسفياً لم يكن مكافئاً لانتشاره كطبيب. ذلك أنه هنالك اتفاق بين معظم المهتمين بالنظر الفلسفى على اعتبار الرازي طبيباً فقط. وقرار الحكم هذا، كان يقف وراءه ابن سينا فى رسالة فى رسالة جوابية بعث بها إلى البيرونى^(٣).

ولم تقف الحملة ضد الرازي عند هذا الحد، بل إنها امتدت إلى أموره الشخصية، إذ تدل دفاعاته عن نفسه فى «السيرة الفلسفية» على ذلك. فكان من نتائجها أن ساهمت إلى حد بعيد فى الحد من انتشار فكره، وذلك بضياغ معظم مؤلفاته الفلسفية، بينما انحفظت أغلب مؤلفاته فى الطب. ونحن فى هذا الصدد، إنما نسلط الضوء على هذا المنعطف - كما يقول حسين مروة - مشاركة منا فى رفع الظلم التاريخى الذى لحق بهذه الشخصية عبر القرون وحتى اليوم.

(*) باحث بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - تونس.

والأمر الذى يبعث على التأمل والتشكيك فى هذا المستوى ، هو أننا لا نعرف نظرية الرازى اعتماداً على نصوصه الأصلية (إلا فى ما ندر) ، بل من خلال ردود الفعل المرتبكة التى أحدثتها نظرياته لدى معاصريه وغيرهم من المتأخرين أمثال البيرونى ، والرحالة ناصر خسرو ، والعالم الطبيعى محمد بن الحسن بن الهيثم ، وكذلك الفقيه المتكلم فخر الدين الرازى ، غير أنه من الإنصاف أن نعترف لهؤلاء ، لمساهمتهم فى إيصال بعض أفكار الرازى فيما يتعلق بنظرية القدماء الخمسة (التي سوف نشرحها لاحقاً) . وبنفس القدر ينبغى أن نقر بفضل المستشرق بول كرواس الذى اعتنى بترجمتها ونشرها ضمن تحقيق أقل ما يمكن قوله فيه أنه يستجيب لشروط العلمية والأمانة ، وبهذا اتاحت لنا فرصة الإطلاع على حلقة تفصل متميزة فى سلسلة تطور الفلسفة العربية .

١ - الفلسفة فى ما تبقى من مؤلفات الرازى :

استناداً إلى ما انتهى إلينا من مؤلفات الرازى مع شذرات من أقواله ، يمكن لنا أن نشارك مع من سبقنا لتوضيح اتجاهه الفلسفى . ذلك أنه خلافاً للتقليد الذى تسارعت وتيرته فى وقت مبكر من حياة الفلسفة العربية ، سعى هذا الأخير لإقامة منظومات الفلسفة بالاعتماد على ما راكمه الموروث الشامل دون الاكتفاء بمدرسة بعينها . والرازى من هذه الناحية فيلسوفاً مجدداً بوصفه مساهماً فى بناء فلسفة مغايرة فى مناحى شتى عن ما كان سائداً وقتئذ ، حتى إن إسهاماته شملت الميتافيزيقيا وفلسفة الطبيعة وكذلك مذهبه فى الربوبية^(٤) .

١ - ١ - الميتافيزيقيا :

تحتوى الميتافيزيقيا ، مثلما يرثيها الرازى ، على خمسة مبادئ تتساوى كلها فى الأزلية واللاتناهى ، يضاف إلى ذلك كونها غير متحركة فى البدء . وهذه المبادئ :

البارئ (الله) / النفس الكلية / الهىولى المطلقة / المكان المطلق (الخلاء) / الزمان المطلق (الدهر) . ومما تجدر ملاحظته أن هذه المطلقات الأزلية كانت - قبل أن يتشكل العالم منها - فى حالة ثبات ، ذلك أن البارئ مثلاً لا يباشر عملية الخلق ،

كما أن النفس الكلية المجردة تماماً من المادة، والهيولى أجزاء مبعثة لا قوام لها، والخلاء منبسط صامت لا يحتوى غير تلك الأجزاء ، أما الدهر فهو ساكن، لا حركة فيه .

غير أن هذه المطلقات يتخللها وجود ، مع أنه غير متحرك، فهو إذن وجود وليس عالماً . ويعتمد هذا النظر التقسيم الذى ارتآه الرازى لفعل البارئ: إرادة عدم الخلق . وبناء على ذلك نستبعد ميتافيزيقا الرازى موضوعتين رئيسيتين فى الفلسفة العربية هما وحدة وتداخل الإدارة الإلهية وأزليتها ، إذ يترتب عن التفاوت بين الإرادتين حصول التغير فى ذات الله، وهذا الأمر مرفوض فى الخط السائد للتفكير الدينى .

والمسألة ذات الشأن حقاً هنا، هى أن مطلقات الرازى ليست بالضرورة مغلقة مثلما هو الشأن لدى فلاسفة الإسلام . بل إن هذا الاستنتاج الذى خلص إليه إنما يتفق مع موقفه السلبي من منطق أرسطو ومناهجه فى تعريف الماهيات .

يتّضح أمامنا حتى الآن، عدد من التجاوزات الفلسفية التى يسجلها الرازى انطلاقاً من خوضه فى الموروثات السابقة عليه دون أن يقع فى ترديد أو تقليد ما سبقه إليه الفلاسفة . ولعل هذه التجاوزات هى ما يمكن أن يشكل مساهمته فى تاريخ الفلسفة :

أ - سعيه إلى بيان أوجه اشتغال المذهب الذرى وذلك بتطويره بعد أن ظل يتأرجح على أيدى المتكلمين، ثم استبعاده للتوظيفات الممكنة التى ألحقه بها الأشاعرة من خلال رسم حدوده، وبالتالي تخليصه من القول الميتافيزيقى .

ب- فهمه للأفلاك ضمن تصور مادي، بعد أن جعلها مؤلفة من ذات المادة التى تتألف منها الموجودات الأرضية . وقد كان الفلك - قبل الرازى وحتى بعده - جسماً غير مركب لا أجزاء له، فهو بهذه الصورة خالد وأزلى .

ج- الانتهاء إلى تصور جديد لإشكالية حدوث أو قدم العالم، وذلك اعتباراً لتساوق المطلقات فى الوجود الفعلى، ولتشاركها فى الأزلية واللاتناهى، بل إنه جعل النفس مشاركة للبارئ فى الحياة والفعل .

ولم يقف الرازى عند هذا الحد ، بل أنه خالف أرسطو حينما قال أن «الجسم يحوى فى ذاته مبدأ الحركة»، وهذا ما أكد عليه دى بور، الذى يرى فى نفس الاتجاه أنه «لو وجد من يؤمن بالرازى ويتم بناءه لكان عمله نظرية مثمرة فى العلم الطبيعى»^(٥)، ويتجاوز هذه المفاهيم ، تمكن من فتح باب للتعامل العلمى ، خاصة فيما يتعلق بالقول بتركيب الأفلاك، ووحدة مكوناتها مع المادة الأرضية .

١ - ٢ - الفلسفة الطبيعية :

استند الرازى إذن، فى إنشاء منظومة الفلسفة، إلى النهل من الموروث الشامل دون الانتصار إلى أية مدرسة مهما كانت . ورغم ميله لأفلاطون ، فإن التطابق بين فلسفتيهما لم يكن بالقدر الذى يجعله تلميذاً أو شارحاً وفيما له^(٦) .

لقد جعل الرازى نفسه مقابلاً لأسلافه، فلم يتصرف معهم كشارح أو مدرّس فلسفة، بل إننا نجده يؤكد على حق الفيلسوف المتأخر فى الاستدراك على المتقدمين . وقد وضع شرطاً أولياً لذلك، هو استعاب المذاهب السابقة، وهو يقول بأن الفيلسوف المتأخر إذا استوفى هذا الشرط يكون فى وسعه أن يثبت منهجه المستقل والخاص فى مقابل معلّمه ، بل وأن ينتهى إلى التفوق عليه^(٧) .

وقد أتاحت هذه النزعة - فى رفض التقليد - للرازى أن يبنى فلسفة خاصة به، تستند إلى تجاربه العلمية، فى الطب والكيمياء بالأخص .

ويورد ناصر خسرو فى كتابه «زاد المسافرين» ملخصاً ، يشير إلى أن الرازى قد توصل - بفضل ممارسته التجريبية لعلوم الطبيعة - إلى تكييف ميتافيزيقا أفلاطون وأفلوطين خاصة فيما يتعلق بفكرة الفيض . فمحاولة الرازى هذه لا تتلخص فى قوله بقديم الهوى والمكان والزمان فقط ، بل إنه أضفى على الهوى مقولة وجودية أطلق عليها «الهوى المطلقة» ، وأكد أنها تعبر تعبيراً مقولياً عن وجود مادى سمّاه "الهوى الجزئية" ، مما يعنى أن الهوى المطلقة موجودة أزلياً بالفعل ثم تصوّرت فيما بعد بصورة الأجسام .

والأمر الذى يستفاد من قول الرازى هذا ، أن الوجود والماهية عنده متلازمان ،
ومما يعارض هذا الاستنتاج تأكيده على أن «الهيولى المطلقة ليست سوى أجزاء لا
تتجزأ ، بحيث يكون لكل واحد من تلك الأجزاء عظم (أى الحجم والمساحة والكمية
"المقدار") ، لأنه لو لم يكن لكل واحد من تلك الأجزاء عظم لم يحصل بتجمعها
شئ له عظم ، هو يعلل اختلاف العناصر المادية الأربعة باختلاف كثافة أجزاء
الهيولى أثناء تجمعها . فإن «ما صار من أجزاء الهيولى متجمعاً جداً ، كان منه جوهر
الأرض ، وما صار أكثر تخلخلأ (أى أقل كثافة) من جوهر الأرض كان منه جوهر
الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقاً من جوهر الماء كان منه جوهر الهواء ، وما صار أكثر
تفرقاً من جوهر الهواء كان منه جوهر النار»^(٨) .

ويرى الرازى أن العناصر يتحول بعضها إلى بعض ، وذلك على الأساس نفسه ،
أى أساس مقدار الكثافة . والمسألة ذات الشأن حقاً فى هذا الصدد هى قاعدته
البرهانية التى ينطلق منها إلى القول بأولية الهيولى . ومبدأ هذه القاعدة هو القول بأنه
لا يجوز أن يحدث شئ من لا شئ ، «لأن العقل لا يقبل مثل هذا القول»^(٩) ، لذا
«وجب أن يكون حدوث الطبائع من شئ ، أن يكون هذا الشئ قديماً»^(١٠) .

يضاف إلى ما تقدم مسألة أخرى لها أهميتها من جهة المنهج ، وهى أن الرازى
يرى أن الموجودات المادية تحدث بالتركيب لا بالإبداع ، وجوهر هذا رأى أن الإبداع
عند الصانع - أى صانع - هو أقرب تناولاً من التركيب . أما الحكيم فلا يفضل فعل
ما هو أبعد من غرضه إلا إذا كان غير قادر على الفعل الأبسط والأقرب . ولما كانت
الكائنات لا توجد إلا بالتركيب كما هو مشاهد وملموس بالاستقراء الكلى فيلزم عن
ذلك انتفاء نظرية الخلق من عدم^(١١) .

يعدّ الرازى إذن ، من أكثر ممثلى الفلسفة الطبيعية ، ويظهر أن هذا المصطلح هو
المستفاد عند علماء القرن التاسع الميلادى من إطلاق لفظ الفلسفة ، وذلك فى مقابل
علم الكلام ، الذى لم يكن الرازى منشغلاً به^(١٢) . وتنسب هذه الفلسفة إلى
فيثاغورس (Pythagore) ، مما يدل على أن أبا بكر اطلع وتأثر بفلسفته ، وقد يكون

ذلك أوكد إذا علمنا أن أستاذه أفلاطون تأثر أيضاً بفيتاغورس . فلا غرابة إذن، من أن نجد الرازى قد ألف ثلاث مقالات فى الفلسفة الفيثاغورية لم يذكرها فهرست كتبه، وهذا ما يذكره المسعودى^(١٣).

١-٣ - مذهب الربوبية :

«إن الربوبية، هى طريقة سهلة للتخلص من الدين»

كارل ماركس، العائلة المقدسة، ص ١٦٧ .

يشير اصطلاح "ربوبية" إلى مذهب فلسفى يجمع بين الإيمان بالله وإنكار الوحي، أى إنكار وجود أنبياء . والربوبيون فريقان : أحدهما ينكر الوحي ويقرّ بحصول التذهان بين الله والعالم . والآخر ينكر الحالتين، أى أنه يقطع - رغم إيمانه بوجود الله - ما بينه وبين العالم . ومنكرو الوحي الذين لا ينكرون التذهان يقرّون بعلاقة شخصية بين الله والإنسان . وقد يمارسون من هنا شكلا من الدين الطبيعى الحرّ . أما منكرو التذهان فيستبعدون مثل هذه العلاقة .

ظهرت الربوبية فى الفكر العربى على أيدى مفكرى القرنين الثانى والثالث هجرى، بزعامه ابن الراوندى . والمذكور عن هذا المتكلم أنه أنكر النبوات مع استمرار إيمانه بالله . وفى هذا المجال يمكن اعتبار أبا بكر الرازى من أهم المنظرين لمذهب الربوبية فى الإسلام، فقد خصها بكتاب سماه «مخاريق الأنبياء»، كما تناولها فى كتاب «العلم الإلهى» وكلاهما مفقود .

يقرّ الرازى إذن ، بوجود الله ويعطيه دوراً فى خلق العالم والعناية به . وهو مع ذلك يفهمه على طريقته الخاصة، فيجعله أحد مطلقات خمسة، ويضع له شريكاً مباشراً فى الفعل هو النفس الكلية . وقد ذهب إلى تقييد قدرة الله على الخلق فوصفه بالعجز عن إيجاد الكائنات بالدفعه وإضراره إلى تدريجها . ورغم ذلك فهو يؤمن بالتذهان ، وبذلك يستبعد دور المؤسسة الدينية ويضع العلاقة مع الله على مستوى الأفراد .

كما يعتبر الرازى أن ما وقع من اختلاف بسبب الأديان ، ومن الاقتتال الذى أهلك العديد من البشر لا يمكن أن يصدر عن السماء . من ثم يكون هذا البرهان كافياً لبيان بطلان هذه الأديان . وفى ردّه على أبى حاتم الرازى ، أوضح أن الدين يتعارض مع حكمة الخالق ، لأن الله حين يختص قوماً بالنبوة دون قوم ويفضلهم على الناس ، ويجعلهم أدلة لهم ، إنما يقوم بدور المحرض على العداوة ، وهذا أفضل من أن يجعل بعضهم أئمة على بعض ، فتصدق كل فرقة إمامها وتكذب غيره فيتخاصم الناس ويهلك بعضهم بعضاً^(١٤) .

يتهم الرازى الأديان بتجهيل الناس لأنها ألزمتهم بتقليد الأئمة ، ومنعتهم من النظر والبحث عن الأصول . ونجده فى هذا المستوى يورد مآثرات يتداولها الحنفاء تحرم التفكير من قبيل : إنّ الجدل فى الدين / كفر لا تتفكروا فى الله وتفكروا فى خلقه / إياكم والتعمق ، فإن من كان قبلكم هلك بالتعمق . . إلخ .

وفى سجاله ضد النبوات ، حاول الرازى أن يكشف عن تناقضات النصوص المقدسة رغم انتمائها المفترض إلى مصدر واحد ، ويستفاد من ردود الإسماعيليين عليه ، أنه حين ذكر المعجزات ذات المضمون العلمى كشفاء المرضى ، تحدث عن الممارسة الحقيقية لهذه الأمور على أيدي الفلاسفة والحكماء ، مشيراً إلى ما فى كتب الطبّ من معرفة طبائع الأدوية ، ومعرفة حركات الفلك والكواكب وحساب النجوم ، وغير ذلك من علم الهندسة^(١٥) . وإنما غرضه هنا هو تبيان أن مصدر المعرفة الحقيقية هم الفلاسفة وليس الأنبياء أى النظر لا الوحي .

لقد وضع خروج الرازى عن الأديان بربوبيته المكشوفة من جهة ، وعدم تقيده من جهة ثانية بالقيود الصارمة للمدرسة الإغريقية فى مجابهة قطبين : أهل الدين وأهل الفلسفة . ففي الجانب الأول تصدى الرازى للردّ عليه مع التنبيه أنه اكتفى بالرد ، إذ رغم مجاهرته بتكذيب الأنبياء ، ومهاجمته للمآثر الدينى ، لم يتعرض الرازى لنفس ما تعرض له معاصره الحلاج الأقلّ مجاهرة بالإلحاد . ومرد ذلك أنه لم تقترن الزندقة عنده بالسياسة - مثلما هو الشأن لدى الحلاج^(١٦) .

وكان من نتائج هذا الائتلاف بين أهل الدين وأهل الفلسفة - (ائتلاف غير واع فى الحقيقة) - أن أثلفت معظم مؤلفات الرازى ، مما يجعلنا نميل إلى التحفظ فى استخلاص مذهبه على حقيقته، ما دمنا غير متمكنين من الإطلاع على نصوصه الأصلية.

II - العلم الموسوعى :

عنى الخلفاء بالطب ، الذى ظهر أنه أكثر نفعاً من أى علم آخر ، وكانت عنايتهم به من أكبر الأسباب التى جعلتهم يعهدون إلى كثير من المترجمين بنقل كتب اليونان إلى اللسان العربى . إذ يذكر ابن أبى أصيبعة فى «طبقات الأطباء» أن الخليفة المنصور مرض عام ١٤٨هـ واستعصى مرضه على الأطباء ، فأشاروا عليه باستدعاء جورجيس رئيس أطباء جنديسابور، فاستقدمه وعالجه حتى شفى ، ونقل له كثيراً من كتب اليونان .

ليس من الغريب إذن أن يظهر بعد هذا فى الطب، تأثير النظريات الرياضية والطبيعية والمنطقية أيضاً، فالمجتمع الجديد الذى نشأ فى القرن التاسع الميلادى يوجب على الطبيب معرفة الفلسفة، مما يفترض ذلك من إلمام بطابع الأغذية والأدوية وأمزجة الجسم . وكان يلزمه إلى جانب هذا معرفة فعل الكواكب فى كل ما يعرض له من حالات . فكان الطبيب بذلك إلى جانب عالم الفلك فى مواجهة التعاويذ السحرية وكل ما فندته التجارب وأظهرت زيفه، وكان على الطبيب أن يتخرج على أيدي علماء الكيمياء، وأن يمارس مهنته طبقاً لمناهج منطقية ورياضية صارمة، كما يذكر لنا بعض مؤرخى تلك الفترة أن أصول ومبادئ الطب كانت تبحث فى مجالس العلم بقصر الواثق (٨٤٢-٨٤٧م) إلى جانب مسائل الكلام والفقه . إذ قام بالمناسبة بحث فى كتاب لجالينوس تم التطرق من خلاله إلى مسألة عمّا إذا كان الطب يستند إلى ما تركه لنا القدماء أو إلى التجربة، أو هو يدرك بأوائل العقل، أو إذا ما كان يأخذ من قضايا الرياضيات والعلم الطبيعى بطريق القياس^(١٧).

أما فيما يتعلق بمؤلفات الرازي الطبية فإن أشهرها هو كتاب "الحاوي" (*) الذى يمكن اعتباره موسوعة زادت مجلداتها عن العشرين . ويعد هذا الكتاب من الضخامة بحيث لا يكتب مثله فى الطب كاتب واحد قط . وهى تجمع طب الإغريق ، إلى طب غير الإغريق ، إلى طب العرب ، إلى طب الرازي نفسه . ولا يوجد اليوم من هذه الموسوعة إلا عشر مجلات موزعة بين المكتبات .

كما يذكر أيضاً أن "الحاوي" ترجم إلى اللغة اللاتينية ، التى طبع فيها خمسة طبعات ومن أبرز كتب الرازي أيضاً ، مؤلفه فى «الجدري والحصبة» الذى ترجم كذلك إلى اللاتينية ، وطبع أربعون طبعة بين سنة ١٤٩٨ و ١٨٦٦ (١٨) .

II - ١ - أولية العقل والتجربة فى تفكير الرازي :

إن روح الاستقلال الفكرى التى امتلكها الرازي تجاه التراث الماضى فى جميع الميادين ، قد ساهمت إلى حد بعيد فى صياغة مذهبه الخاص . فالرازي كان على وعى تام بما يفعل . وقد أورد فى كتابه «الشكوك على جالينوس» كل الانتقادات التى وجهها العلماء بما فى ذلك جالينوس نفسه ، إلى من سبقوهم .

وعلى هذا النحو كان الرازي يميل فى مسائل الفلسفة ، كما فى العلوم التى مارسها إلى اتخاذ موقف قريب من موقف كانط - فى الأزمنة الحديثة - المستند إلى سلطة العقل (١٩) . وقد سجل بدقة تاريخ حالات مرضية فى كتاب شهير طالما تناقش فيه العلماء ، حيث نجد فيه لأول مرة تعريفاً صحيحاً فى الفرق بين الجدري والحصبة (٢٠) .

أما فى مجال الكيمياء ، فالرازي أول عالم يجوز بحقه هذا اللقب . فمن دون أى شك كان أبا بكر ملماً بأراء من سبقه من الكيميائيين ، ولكنه تميز عنهم فى خصوص التقسيم المنطقي الذى أورده للعناصر المعروفة لديه ، والتى قدم فيها أوصاف دقيقة للأدوات والطرق التى استخدمها فى تجاربه العلمية ، حيث توصل من خلال ذلك إلى نتائج دقيقة مبنية على ملاحظاته هو نفسه .

(*) يعرف هذا الكتاب فى اللاتينية باسم "Continens" ، أنظر جوزيف شاخنت ، تراث الإسلام ، ج ٢ ، ترجمة حسين مؤنس ، المجلس الوطنى للثقافة ، الكويت ، ١٩٩٨ ، ص ١٤٩ .

ويقّر الرازى فى "كتاب الطب الروحانى" صراحة بالدور الحاسم للعقل فى مجال العلوم ، وخاصة فى مجال الطب، فيقول: "فبالعقل نلنا الطب الذى فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا، النافعة لنا . . ." (٢١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرازى قد يكون تتلمذ فى الطب على ابن ربن الطبرى، الذى ترك لنا موسوعة «فردوس الحكمة» والمعروف أن هذا الأخير كان معاصراً لحنين ابن اسحاق (٨٥٠م)، فيما يعرف عن هذا الأخير من التراجم التى قام بها فى خصوص كتب الطبّ والفلسفة، وخاصة كتاب «مقالة فى الدلائل» لأبقراط، ومن ثمة تصح النسبة فى أن الرازى كان أبقراطى المذهب، جالينوسية (٢٢).

لكن هذا الاتجاه لم يمنع الرازى من نقد معلميه عندما دعت الحاجة إلى ذلك، ولعل كتابه المعنون بـ «الشكوك على جالينوس» خير دليل على ما ذهبنا. فالمسألة بالنسبة إليه، هى التأكيد على دور العقل والتجربة فى بناء العلم. ولم يكتف فى هذا المجال بالأخذ على من سبقه من أبناء ملته، بل إنه انتهل من كل كتاب وقعت عليه يده، غير ناظر إلى مخالفته فى العقيدة أو المذهب. وفى الحقيقة، فإن هذه الخصال العلمية قلما نجدها عند عالم من أبناء عصره، ويذكر مترجمو أخبار الرازى حادثة طريفة، تؤكد نبوغه وتفوقه فى هذا المجال، مجال الطبّ الذى نحن بصددده، ذلك أنه «انتقل بعد سنّ الثلاثين إلى بغداد، فرأى الخليفة العباسى "عضد الدولة" أن يستغل مواهبه ونبوغه، فاستشاره فى بناء اليمارستان (مكان للتداوى ودراسة الطب) فى بغداد، فى الموضع الذى يجب أن يبنى فيه، فذهب الرازى إلى نواح يطلب أصحابها هواء وأطهرها جواً، فعلق قطعاً من اللحم فى جهات مختلفة، فالموضع الذى بقيت فيه قطعة اللحم أطول مدة دون أن تفسد، فذلك هو المكان الصحى الذى اختاره لبناء اليمارستان. وقد تولى الرازى رئاسة الأطباء فيه بعد بنائه» (٢٣).

ثبتت هذه الواقعة الحسنة التجريبية لدى الرازي، الذي توصل بفضل ممارسته العقلية الحاذقة لعلوم الطب والكيمياء والطبيعة إلى أن يكون طبيب العرب دون منازع، بل لعل الدراسات الرائدة التي قام بها ألبير زكي اسكندر «قد قدمت دليلاً لا يمكن نقضه، من أن أقساماً كاملة من كتاب ابن سينا في الطب تعتمد اعتماداً أساسياً على الرازي»^(٢٤).

يشيد الرازي إذن، إشادة قاطعة بالعقل، الذي يعده المرجع الأول والأخير في كل الأمور. وهذا الاعتداد بالعقل دفعه إلى اعتبار الفلسفة هي السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع. وأما الأديان فهي مدعاة التنافس والتطاحن والحروب. لذلك نجده يؤمن بالحكمة التي تبحث عن أفكار كوّنتها عقول مختلفة، كما أنه يفضل التجربة العلمية على استدلالات المنطق التي لا تثبت أمامها. وهذا الأمر لا يمكن أن يستفاد إلا بالاجتهاد في دراسة الكيمياء، باعتبار أنها صناعة صحيحة تستند إلى وجود مادة أولية، وبالتالي فلا غنى للفيلسوف عنها، الذي يحوز لقبه هذا فقط، إذا علم الكيمياء. يقول الرازي: «أنا لا أسمى فيلسوفاً إلا من كان قد علم الكيمياء، لأنه قد استغنى عن التكسب من الناس، وتزده عما في أيديهم وله كتب في الصنعة والدفاع عنها»^(٢٥).

بل إنه (أى الرازي) كان يعتقد أن فيتاغورس وديمقريطس وأفلاطون وأرسطو وجالينوس كانوا من المشتغلين بالكيمياء.

السلطة المطلقة إذن، حسب الرازي يجب أن تعود إلى العقل، وعليه فلا مكان للدين أو للنبوة^(٢٦). وهذا المبدأ - في الواقع - هو الذي دفعه إلى اعتبار تساوى الناس في الاستعدادات وفي العقول، وأن اختلاف حظوظهم من المعرفة سببه اختلافهم في كمية الجهد المبذول في اقتنائها. لذلك نفى الرازي أن يكون هو أخص بالفلسفة من غيره، وأنه يتميز فقط بالشدة والتحصيل. أما سائر الناس ممن لم يعن بالفلسفة، فإنما حرموا ذلك «لإضرابهم عن النظر لا لنقص فيهم» واستدل على ذلك بأن أحدهم "يفهم من أمر معاشه وتجارته وتصرفه في هذه الأمور، ويهتدى بحيلته

إلى أشياء تبين فهمه للكثير منها، لأنه صرف همته إلى ذلك " ولعلنا نفهم الآن نداء دنيس ديدرو في القرن الثامن عشر حينما قال: «فلنعجل بأن تصبح الفلسفة شعبية»، ذلك أن الفلسفة حسب الرازي إنما تحيا وتتطور بمدى صلتها بالجمهور الواسع، وكذا علم الطب الذي لا يمكن له الانتصار على الجهل والخرافة دون توفر فضاء قادر على تقبل نتائجه.

استنتاجات :

ما يمكن ملاحظته في جميع المناقشات والردود التي أثارها معاصرو الرازي أو من تأخر عليه - سواء تعلق الأمر بأبي حاتم الرازي (٩٣٣م) أو حميد الدين الكرمانى أو ناصر خسرو - هو وصفهم له بـ"الملحد" وهذا ما يعكس لهجة الانفعال التي سادت أسلوب البعض في هذه المطارحات، بحيث يمكن استنتاج ما يلي:

أولاً: الحذر في مدى موضوعية ما ورد من نصوص ومواقف نسبت للرازي، ما دامت النصوص الأصلية غير متوفرة، وإنما أوردتها خصومه ومعارضيه.

ثانياً: كان الفيلسوف الرازي صريحاً وجريئاً في التعبير عن موقفه وآرائه المعارضة للمواقف «الرسمية» السائدة في عصره. والملاحظ كذلك في هذا الصدد أن أشدّ معارضيهم من الإسماعيلية.

وهذا ما حفظه لنا التاريخ، على الأقل من خلال ثلاث وثائق تتضمن هجوماً عنيفاً على مقالة أبي بكر الرازي بشأن القدماء الخمسة - التي سلف عرضها - وخاصة إنكار النبوات.

أولى هذه الوثائق، تعود لأكبر دعاة الإسماعيلية في القرن العاشر الميلادي، هو أبو حاتم الرازي^(٢٧)، وقد سجلت هذه الوثيقة في كتاب له يسمّى "أعلام النبوة" إلا أنه تنبغى الإشارة هنا إلى أنه لم يتم ذكر أبي بكر الرازي صراحة في هذه الوثيقة، التي تمت صياغتها بشكل مناظرات، يقول أبو حاتم أنها، جرت بينه وبين أبي بكر الرازي بأمر النبوة. ولكن تدوينها من طرف واحد يثير الشكوك في قيمتها التاريخية.

ثانية : هذه الوثائق، تنسب لإسماعيلي آخر، هو حميد الدين الكرمانى، وهى عبارة عن تكملة الأولى واستدراك عليها، بمعنى أنها إضافة حجج جديدة فى الرد على أفكار أبو بكر الرازى بشأن النبوات.

أما الوثيقة الإسماعيلية الثالثة، فهى ما أثبتته ناصر خسرو فى «زاد المسافرين» من منتخبات للرازى فى مسائل اللذة، وقدم الهيولى والمكان والزمان ورد عليها.

ولعل اهتمام الإسماعيليين بالتحديد، دون غيرهم بالتصدى لأفكار الرازى على هذا النحو المتسم بالعنف، إنما يعود أساساً إلى اهتمامهم بالدفاع عن مفهوم الإمام، الذى يقرن لديهم بمفهوم النبوة.

لجملة هذه المسائل التى سلفت استباعات أراد من ورائها الرازى تكريس تمشى جديد يعيد الاعتبار للعقل، الذى ثبت تفوقه فى العديد من الميادين.

ولعل انتصاره للنظر الفلسفى دون غيره من طرق الإلهام والتقليد، هو ما جعله ينتهى إلى أمرين : أولهما انتفاء وظيفة الإمامة فى قضايا المعرفة، والثانية عدم ضرورة انقسام الناس معرفياً إلى خاصة وعامة. وقد صرح الرازى بالأولى فى مناظرات أبى حاتم معه . أما الثانية فتستخلص من مجمل ردوده فى المسائل نفسها. ويخرج الرازى بهذا القول عن إجماع فلاسفة الإسلام الذين يعدون الفلسفة من اختصاص الحكماء.

والمسألة ذات الشأن فى هذا المستوى، أن قول الرازى هذا لم يقتصر على التنظير فحسب، وإنما كان يسلك وفقاً لما يقتضيه مذهبه فى الفلسفة، الذى يستبعد الرؤية النخبوية فى التفكير. ولهذا السبب يسارع الرازى فى الرد على بعض الفلاسفة الذين اتهموه بمداخلة العامة، فيقول: «إن ناساً من أهل النظر والتمييز والتحصيل، لما رأونا ندخل الناس ونتصرف فى وجوه من المعاش عابوناً واستقصوناً وزعموا أنا حائذون عن سيرة الفلاسفة ولا سيما سيرة إمامنا سقراط» (٢٨).

جمع الرازى إذن، بحذق كبير بين الفلسفة والطب. وفى الحقيقة فإن هذا الأمر كان شائعاً بين أغلب مفكرى ذلك العصر مثل ابن سينا والبيرونى، وحتى الفارابى.

وعليه، مثل هذا النهج من التفكير دفعاً كبيراً للعلم والفلسفة على حد سواء، بل لعل الفلسفة باعتبارها حكمة وتديراً للعقل قد شكلت البوصلة التي حددت اتجاه العلم بمختلف ضرويه وتلويناته، لأن العلم إذا كان في ذاته، أو هو استدار إلى ذاته دون أن يفتح على ما يقتضيه النظر العقلي فقد يرتد حينئذ إلى أداة ضد العقل ذاته، وليس أدل على ذلك ما حصل للعديد من الفلاسفة والعلماء من نكبات راجعة بالأساس إلى إقصاء التفكير المخالف، ولنا في الرازي وابن رشد الأدلة الساطعة على خط تنويرى أكد قدرته على منازلة وفك الإشكالات النظرية المستعصية، التي طرحت على العقل وعلى الإنسان سواء في الشرق أو في الغرب.

الهوامش والمراجع

- ١ - القفطى ، تاريخ الحكماء ، مكتبة المثنى ، بغداد - مصر ، ١٩٠٣ - ص ٢٧١ .
- ٢ - أنظر حسين مروة ، النزعات المادية فى الفلسفة العربية ، ج ٢ ، دار الفارابى ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٥٤٤ .
- ٣ - محى الدين الكردي ، جامع البدائع ، القاهرة ، ١٩١٧ ، ص ١٢٧ .
- ٤ - هادى العلوى ، الرازى فيلسوفاً ، دار الهمدانى ، عدن ، ١٩٨٤ ، ص ٨ .
- ٥ - دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة عبدالهادى أبو ريده ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ص ١٥٠ .
- ٦ - ناجى التكريتى ، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكرى الإسلام ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ٢٤٣ .
- ٧ - أبو بكر الرازى ، رسائل فلسفية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٣٠١ .
- ٨ - نفس المصدر ، ٢٢١ .
- ٩ - نفس المصدر ، نفس الصفحة .
- ١٠ - نفس المصدر ، ص ٢٢٥ .
- ١١ - هادى العلوى ، نفس المرجع ، ص ١٠ .
- ١٢ - دى ، بور ، مرجع سابق ، ص ١٤٨ .
- ١٣ - المسعودى ، التنبيه والإشراف ، دار الصاوى للطباعة والنشر ، القاهرة ، د-ت ، ص ١٦٢ .
- ١٤ - الرازى ، مصدر سابق ، ص ٢٩٥ .

- ١٥- الرازى، نفس المصدر، ص ٢٣٩.
- ١٦- هادى العلوى، مرجع سابق، ص ٣٨.
- ١٧- دى بور، مرجع سابق، ص ١٤٧.
- ١٨- نفس المصدر، ص - ح - (المقدمة).
- ١٩- قدرى طوقان، مقام العقل عند العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٣٧.
- ٢٠- أنظر بول كراوس، فى دائرة المعارف الإسلامية مادة «الرازى».
- ٢١- الرازى، نفس المصدر، ص ١٨.
- ٢٢- نفس المصدر، ص - ب - (المقدمة).
- ٢٣- نفس المصدر، نفس الصفحة.
- ٢٤- جوزيف شاخت، تراث الإسلام، ج ٢، ترجمة حسين مؤنس، المجلس الوطنى للثقافة، الكويت، ١٩٩٨، ص ١٦٦.
- ٢٥- دى بور، مرجع سابق، ص ١٥٠.
- ٢٦- مصطفى كاك، فى «فكر ونقد»، عدد ٣٣، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٩٦.
- ٢٧- أنظر إبراهيم مذكور، فى الفلسفة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د- ت، ص ٨٦.
- ٢٨- الرازى، كتاب السيرة الفلسفية، ضمن رسائل فلسفية، ص ٣٠٠.